التوجيه النحوي للقراءات القرآنية عند ابن خالويه
إعراب القراءات السبع وعللها نموذجا

أ . أحمد مرغم
جامعة سطيف

سنجد في البحث بعض ملامح منهج الإمام ابن خالويه في كتابه : " إعراب القراءات السبع وعللها" ، فهو يستدل على صحة القراءة بالسند المتواتر الذي رويت به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بموافقتها للغة القرآن الكريم فيما وردت فيه مثيلاتها من الآيات . ثم بموافقتها للغة الحديث الشريف المروي بالسند الصحيح . ثم بموافقتها للغة العرب ، وهو يظهر في أثناء ذلك براعته وقدرته اللغوية ، كما يتخذ من إجماع اللغويين حجة قوية في إثبات ألفاظ القرآن وتوجيهها التوجيه المناسب ، إلى غير ذلك من الأمور المنهجية .

Dans cette recherche, nous trouverons quelques-unes des caractéristiques de "l'Imam ibn khalawih" approche dans son livre: «Expression des sept lectures et leurs causes". Il est déduit sur la santé du bref de la lecture fréquente Ensuite, le consentement à la langue du Coran Ensuite, le libellé du consentement Hadith Ensuite, la langue des Arabes, qui apparaît dans le cadre de cette maîtrise de la langue et la capacité, et prenant également le consensus des linguistes est un argument fort .

Pour les autres questions relatives à la connaissance des lectures orientations méthodologiques.

من الأمور التي تلفت القارئ لتراثنا في مجال العلوم المتصلة بالقرآن الكريم، ما احتوته المكتبة القرآنية من إبداع لا نظير له عند الأمم الأخرى في مجال قراءات القرآن الكريم، لقد حفت بالدراسة من جوانب مختلفة، من جهة تسبيعها وتعشيرها وتوجيهها والاحتجاج لها وإعرابها والمفاضلة بينها وتصنيف أصحابها ورواتها وترجمتهم ومعرفة بلدانهم ورواتهم وشيوخهم .. إلى ما يتصل بالأداء وطرقه المختلفة وقوانينه الصارمة .

ومن بين ما شاع بعد كتاب السبعة لابن مجاهد اتجاه العلماء الأفذاذ إلى الاشتغال بتوجيه القراءات السبعة الواردة في هذا الكتاب، وكما أنه - رحمه الله - كتب كتابا آخر في القراءات الشاذة انبرى بعض العلماء أيضا إلى بيان ما في هذا الشاذ من قوة لغوية ومعنوية لا يخرج بفضلها عن مجال العربية، وإن خرج من مجال القراءة . على أن القراءات السبع والعشر بعد ذلك هي التي كان لها قصب السبق وحصة الأسد في الدرس والشرح والتوجيه والاحتجاج .

وكان الإمام اللغوي الحجة أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ت 370 هـ من العلماء الذين اهتموا بسبعة ابن مجاهد توجيها وإعرابا . وكان مما امتاز به عن سائر المتكلمين في هذا الفن الجليل أنه لم يشهر سيفه النحوي الصارم في حق القراءات والقراء، فكان متواضعا في الحكم على القراءة لا يدعي الإحاطة باللغة، بل يكل علم ما لم يعلم إلى عالمه، ويوجد للقارئ العذر قدر الإمكان إذا كانت قراءته بعيدة في التوجيه النحوي، وكان قصارى ما يصل إليه من التجريح أن يتهم الراوي عن القارئ في عدم ضبطه لما رواه عن إمامه في القراءة . بل إنه ينهج نهج المحدثين في النقد، فيطبق قاعدة مخالفة الراوي لسائر الرواة عن القارئ الواحد، ويجعل ذلك سببا في رد ما رواه مخالفا به غيره من الرواة .

مفهوم الاحتجاج للقراءات وتوجيهها :

إن الباحث في توجيه القراءات، يجد أنه قد ذاعت لهذا الفن أسماء أخر طالما يوافقها المرء في مؤلفاته وعبارات المهتمين به، من مثل : (حجة القراءات)، و (وجوه القراءات)، (معاني القراءات)، و (إعراب القراءات)، و(علل القراءات) . واجتمعت هذه الأسماء كلها تحت مصطلح (الاحتجاج) الذي كان أعمّها دلالة، وأشيعها انتشاراً في محيط الدراسات اللغوية، فما معنى كل من الاحتجاج والتوجيه في اللغة والاصطلاح ؟ .

الاحتجاج في اللغة: افتعال من الحَجّ، وهو القصد، والحجّة: الدليل والبرهان، وهي الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، أو ما دُلّ به على صحة الدعوى، والجمع حُجَجٌ وحِجاج [1] . أما اصطلاحاً : أقرب ما يعرف به أنه (فن يُعنى بالكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها، وبيانها والإيضاح عنها) .

ومن هنا جاء لفظ الاحتجاج، فقد انبرى العلماء المحتجون لتوضيح حججهم، ولعل الداعي إلى سلوك هذا النهج هو بيان وجه اختيار القارئ للقراءة بهذا الوجه، والبرهنة على صحة القراءات الصحيحة، ردّاً على من يرتاب في صحتها، كما ساعد ذلك على بيان ثراء معاني القرآن العظيم، وتنوع دلالاته الناجمة عن تنوع القراءات .

أما التوجيه فهو مصدر للفعل وجّه، وأصله من الوَجه، ووجه الكلام : السبيلُ الذي تقصده به، ويقال في المثل : وَجّهِ الحَجَر وجهَةَ ماله [2] ، أي: ضعه على وجهه اللائق به، ويُضرب لمن لا يدبر الأمر على وجهه الذي ينبغي أن يوجه عليه، وكساء مُوجه، أي : ذو وجهين [3] . أما اصطلاحاً، فبناءً على ما سبق يتأتى مفهوم توجيه القراءات، فنراه يدور حول بيان الوجه المقصود من القراءة، أو تلمس الأوجه المحتملة التي يجرى عليها التغاير القرآني في مواضعه، سواء كانت هذه الوجوه ـ كما سيتضح ـ نقلية أم عقلية . فالزركشي (ت794هـ) يجعل النوع الثالث والعشرين من علوم القرآن في (معرفة توجيه القراءات، وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ) ويرى أنه "فن جليل" وبه تعرف جلالة المعاني وجزالتها، وقد اعتنى به الأئمة وأفردوا

فيه كتباً .. وفائدته كما قال الكواشي (ت680هـ) : "أن يكون دليلاً على حسب المدلول عليه أو مرجّحاً" [4] .

الكتب المؤلفة في الاحتجاج للقراءات وتوجيهها :

من المعلوم أن الكتب التي تتصل بالقراءات اتخذت طريقين اثنين : الطريق الأول هو الكتب التي اقتصر مؤلفوها على ذكر القراءات والقرّاء سواء أكانت السبعة أم العشرة، وقد يكون أقل من ذلك، كمصطلح الإشارات لابن القاصح، الذي تحدث عن ست قراءات، أو أكثر من العشرة كإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي، وهو اختصار لكتاب "لطائف الإشارات لفنون القراءات" لشهاب الدين القسطلاني، وهو في القراءات الأربع عشر" [5] . وهذا النمط من التأليف ليس موضوع بحثنا هنا .

أما الطريق الثاني فهو الكتب التي لم يقتصر فيها أصحابها على القراءات والقرّاء، بل أضافوا إلى ذلك توجيهاً لكل قراءة، وهذه الكتب كثيرة متعددة، وصل بعضها إلينا وطبع وعني بقراءته وتحقيقه وإقامة الدراسات عليه العلماء والباحثون وطلاب العلم، بينما ما لم يصل إلينا، مما ذكرته كتب التراجم والفهارس، ربما يكون أكثر مما وصل إلينا .

ابن خالويه التوجيه النحوي للقراءة في كتابه إعراب القراءات السبع وعللها :

1 ـ المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه :

هو الإمام الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان أبو عبد الله الهمذاني النحوي (270- 370 هـ)، ولد بفارس وقدم بغداد لطلب العلم سنة 314هـ، ثم انتقل إلى الشام واستقر بحلب في كنف سيف الدولة الذي جعله من كبار شيوخ مجلسه، وأوكل إليه تأديب أولاده . نشأ حريصا على طلب العلم، مكبا على الإفادة، يشهد لذلك كتابه الذي بين أيدينا، فقد تنوعت فوائده من نقل قراءة، أو رواية حديث، أو ذكر فائدة تتعلق بالتفسير أو تكشف معنى مشكلا أو إعرابا أو فائدة تاريخية أو قصصا أدبية أو ملحا ونوادر وأشعارا . فهو ينقل ـ من وقت لآخر ـ طرائف ونكتا ليضفي على جفاف علم اللغة والإعراب تلك النسمات الأدبية التي تتمثل في الحكايات المستعذبة، والأمثال الرائقة، والإنشادات الرقيقة الفائقة التي يهدف من وراء إنشادها نقل القارئ من جد إلى هزل، ومن هزل إلى جد، وهو يتخذ في ذلك طريقة المحدثين الأوائل في إسناد مروياتهم . على أن الغالب على فنه هو اللغة والنحو وما يتصل بهما من شعر وأدب وعروض وصرف ومعان وبيان وقراءات .

وإذا جئنا إلى مذهبه النحوي فهو ممن خلط بين المذهبين البصري والكوفي، وذلك لتنوع شيوخه من المدرستين . وقد توفي بحلب سنة370 هـ .

2 ـ كتاب إعراب القراءات السبع وعللها :

يظهر أن هذا الكتاب ملخص من كتاب في "إعراب القرآن"، لأن المؤلف نصّ على ذلك في مقدمته فقال : "هذا كتاب شرحت فيه قراءات أهل الأمصار : مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام، ولم أعد ذلك إلى ما يتصل بالإعراب من مشكل أو تفسير غريب، والحروف بالقراءات الشاذة، إذ كنت أفردت في ذلك كتابا جامعا وإنما اختصرته جهدي ليستعجل الانتفاع به المتعلم، ويكون تذكرة للعالم، ويسهل حفظه على من أراد ذلك .

ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها ابن خالويه في كتابه إعراب القراءات : كتاب معاني القرآن لأبي زكرياء يحي بن زياد الفراء (ت 207 ه)، وكتاب القراءات لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت 224 هـ)، وكتاب العين للخليل بن أحمد، وكتاب المجاز لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وكتاب الأبنية للجرمي، والسبعة في القراءات لابن مجاهد ..

3 ـ منهج ابن خالويه في كتابه إعراب القراءات :

يقول ابن خالويه في خطبة كتابه : "هذا كتاب شرحت فيه إعراب قراءات أهل الأمصار .. ولم أعْد ذلك إلى ما يتصل بالإعراب من مشكل أو تفسير وغريب، والحروف بالقراءة الشاذة .." [6] . ومع أنه ألزم نفسه بالقراءات السبع كما هو واضح من عنوان كتابه، وكما صرّح بذلك في مقدمته فقال : "ولا أذكر في هذا الكتاب إلا حروف السبعة" لكن المؤلف لم يلتزم بهذا، فذكر السبعة وغيرهم، وأحياناً يذكر القراءات الشاذة، هذا فضلاً على احتجاجه للسبعة بقراءة غيرهم ممن سبقهم .

وتابع ابن خالويه شيخه وأستاذه ابن مجاهد في كتابه "السبعة" واقتفى أثره، وسار على نهجه والتزم طريقته لا يحيد عنها، وقد صدّر كثيرا من الفقرات بقوله : حدثني ابن مجاهد .. وأخبرني ابن مجاهد .. وسألت ابن مجاهد .. وسمعت ابن مجاهد .. وقرأت على ابن مجاهد ..

وابن خالويه كان لا يقبل أن يُخطأ أحد من القراء، وينصّ صراحة في كثير من المواضع على أن القراءة سنة متبعة . لذا كان كثيراً ما كان يُرد على أستاذه ابن مجاهد الذي أخذ عنه الدروس العلمية في القراءة والنظرية في نقل رواية القرّاء وهو متأثر جداً في كتابه بكتاب السبعة كما سبق بيانه . ونلاحظ أنه ـ بعد خطبة الكتاب ـ كتب مقدمة ذكر فيها الأئمة السبعة دون ذكر لتراجمهم وأخبارهم، وذكر نبذة مختصرة في فضائل القرآن، ثم ذكر أسانيده إلى قراءات السبعة، ثم أسانيد السبعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ختم هذه المقدمة بفصل ذكر فيه الحث على تعلم العربية أسند فيه بعض ما أثر في ذلك . وابتدأ بالاحتجاج للقراءات من سورة الفاتحة إلى آخر القرآن الكريم، فيذكر الآية المختلف فيها ويسند القراءات المذكورة فيها .

ومن منهج ابن خالويه بعد أن يوّجه القراءات لا يمتنع عن اختياره قراءة على أخرى مستدلاً لها بوجوه الاستدلال، والتزم المؤلف بترتيب السور في تناوله للتوجيه، غير أنه لا يلتزم التزاماً كاملاً بترتيب الآيات .

4 ـ الأصول النحوية في كتاب إعراب القراءات السبع وعللها :

لقد وجدنا ابن خالويه يتبع منهجا أصوليا مطردا في إثبات القراءة والحكم عليها فهو يحتفي بالسماع : فيقدم الرواية والسند على كل ما عداه، ويسرد لنا أسانيده في القراءات السبع ثم هو يستشهد على القرآن بالقرآن فيشرح اللفظ باللفظ في موضع آخر ، وينبه على اختلاف الدلالة في اللفظ القرآني الواحد عند اختلاف السياقات ، كما أن لغة القرآن عنده هي أعلى مستوى للفصاحة . وهو يستشهد للقراءة المتواترة بالقراءة الشاذة لكونها صحيحة السند موافقة للغة العربية، فهي تصلح أن تكون مبينة لمعاني القراءات المتواترة . بل إنه يحاول توجيه القراءة الشاذة الخارجة عن السبع رغم أن منهجه يقتضي عدم الخروج عن القراءات السبع كما دلت على ذلك مقدمة كتابه .

كما أنه يعتمد الحديث الشريف أصلا من أصول النحو وإثبات القراءة ولعله في هذا كان سباقا لما ذهب إليه الإمام ابن مالك من جعله الحديث الشريف حجة في المسائل النحوية، فابن خالويه ينصّ على أن اللفظ إذا ورد في الحديث الشريف فليس لنحوي ولا لغيره أن يخالف ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهو يهتم بتتبع ألفاظ الحديث وشرحها ويكثر من الاستدلال بها على معاني ألفاظ القرآن الكريم .

وكلام العرب شعرا ونثرا كان من أصول الاحتجاج عنده، فلا تخلو آية من الاحتجاج لها بكلام أهل الفصاحة، من شعر أو رجز أو مثل عربي، يثبت بذلك معنى القراءة ويوضحه، على أنه كان يتحرى في رواية اللغة عن الثقات أمثال شيخه ابن دريد وثعلب والفراء والأصمعي والخليل وغيرهم، ينقل كل ذلك بسنده المتصل، وقد كان هذا أهم ميدان توسع فيه في هذا الكتاب، ويكفي ـ في علو قدره في اللغة ـ أن أبا العلاء المعري ضبط اللغة عن أصحاب ابن خالويه، فما بالك لو أنه تتلمذ لابن خالويه .

وهو في خضم ذلك معلم بارع لا يترك فرصة إيراد بعض القواعد النحوية أو الصرفية إلا وذكرها، يشير مثلا أن النكرة إذا أعيدت صارت معرفة، يشير إلى كيفية جزم الفعل في جواب الطلب، ومسألة العطف على المحل في الاسم المجرور بحرف جر زائد .. وفي مجال القواعد الصرفية يؤكد على أصول الكلمات وأوزانها ونوع همزتها، ويذكر تصغير الاسم المضاعف، ويذكر قواعد المصدر الميمي من الرباعي والثلاثي من فعل وأفعل .. وهو يعتد بإجماع النحويين كأصل من أصول النحو وإثبات القراءة، فلا تجوز مخالفة الإجماع عنده وهو حجة .

ومن الأصول التي استعملها في الاستدلال أنه يجعل كثرة الاستعمال من المرجحات القوية لديه، يرجح القراءة بالإدغام على الإظهار مثلا، لأنها قراءة الجمهور كما في قراءة : "اركب معنا" . وهو يعلل للقراءة برسم المصحف الموافقة له، ويدرك الموافقة الحقيقية والموافقة الحكمية والمخالفة بزيادة أو نقص . ومما ورد في كتابه الإشارة إلى اختلاف المعاني باختلاف الإعراب واختلاف الوقف باختلاف القراءة والمعنى، وهو يشير إلى المسائل الاعتقادية المختلفة المتعلقة بالآيات القرآنية، ويستطرد في ذكر التفاسير والإشارة إلى الدقائق التي يمكن أن يستنبطها بنفسه من لطائف القرآن .

لقد كان كتاب ابن خالويه على صغر حجمه موسوعة نحوية وصرفية ولغوية احتوت واستعانت بجميع ما كان شائعا آنذاك من علوم وفنون يأخذ بعضها من بعض، وكان ابن خالويه بحق ذلك الإمام الذي جمع فنون عصره وأبدع فيها على اختلافها وربط بينها حتى طوعها لخدمة القرآن الكريم . بل إن ابن خالويه قد سبق عصره باستشهاده بالحديث الشريف ونصه على وجوب الأخذ به في إثبات القواعد اللغوية والنحوية .

5 ـ أمثلة تطبيقية على منهج ابن خالويه في كتابه :

سوف نقتصر في هذه العجالة على بعض الأمثلة التي يتبين لنا من خلالها منهج ابن خالويه في كتابه إعراب القراءات وعللها . من ذلك كيفية نقده للمرويات، وكيفية المفاضلة بينها، وكيفية الاختيار منها، وعلى أي أساس كان الاختيار عنده .

أ ـ احترامه للقراءات من الأسباب التي دفعته للتعليل لها :

يقول ابن خالويه : "فإذا عطفت الآيه على شكلها كانت أحسن من أن تقطع مما قبلها، وكلّ صواب بحمد الله" [7] . ويقول في موضع آخر : "وكل ذلك حسن ولله الحمد، وسمعت محمد بن أبي هاشم يقول : سمعت ثعلبا يقول: إذا ورد الحرف عن السبعة وقد اختلفوا ثم اخترت لم أفضل بعضا على بعض، فإذا ورد في الكلام اخترت وفضلت" [8] .

ويقول في موضع آخر: "قرأ حمزة وحده : "السيء" بجزم الهمزة، وإنما فعل ذلك لتوالي الكسرات مع الياء والهمزة، فأسكنه تخفيفا، كما يفعل أبو عمرو في مثل : خادعهم، وينصركم، ويأمركم، وقد نسب بعض من لا يعرف العربية واتساع العرب حمزة إلى اللحن، وليس لحنا لما أخبرتك" [9] . فها هو يتقنن في التعليل للقراءة نتيجة كونها ثابتة سندا، ويعتمد في ذلك على سعة ما أحاط به من كلام العرب، ولا يصعب عليه حينئذ أن يجد للقراءة التخريج المناسب .

وهو أمام صحة السند لا يلتفت إلى إنكار أي منكر للقراءة مهما كان، يقول : "وروى قنبل عن ابن كثير : (قال فرعون وَأَمَنتُمْ به) بواو بعدها همزة ساكنة، فقال ابن مجاهد : خطأ .

وله عندي وجه في العربية : وذلك أنه لين ألف القطع التي هي همزة فصارت واوا، لانضمام ما قبلها فرجعت الهمزة التي هي فاء الفعل قبل أن تلين .. " [10] .

وهو يستدل لشيخه ابن مجاهد ثم يخالفه فيقول : "وروى عباس عن أبي عمرو (مكا) مقصور، قال ابن مجاهد ولا وجه للقصر، كأنه ذهب إلى أن الأصوات كلها جاءت بالمد نحو الدعاء والرغاء . قال أبو عبد الله : وقد جاء البكاء ممدودا ومقصورا، قال الشاعر :

بكت عيني وحق لها بُكاها وما يغني البكاءُ ولا العويلُ

فإن صّح في اللغة قصرها على ما روي عن أبي عمرو جاز كما قصر البكاء، وإن لم يصح في اللغة كما شذ في القراءة رفض فاعرف ذلك فإنه لطيف" [11] .

وهو في مجال الاحتجاج للقراءة يرد قول ابن مجاهد وأبي عمرو البصري معا فيقول : قرأ ابن كثير برواية البزي في رواية شبل ابن عباد : (شركايْ) غير ممدود مثل هداي وبشراي، قال ابن مجاهد : لا وجه لها، وقال ابن الرومي : سألت أبا عمرو عنها فقال : لحن . قال أبو عبد الله : وله وجه، وذلك أن العرب تستثقل الهمزة في الاسم المنفرد، فلما اجتمع في شركائي أربعة أشياء كلها مستثقلة : الجمع، والهمزة، والكسرة، والياء، خزل الهمز تخفيفا، وكل مدة فهي زائدة، ألا ترى أن الشاعر إذا احتاج إلى قصر الممدود حذف الهمزة غير متهيب، كقول الشاعر: "لا بد من صنعا وإن طال السفر" . وصنعاء ممدود، وقال آخر:

فلو أن الأطبا كان حولي وكان مع الأطباء الأساة

أراد : فلو أن الأطباء، فهذا واضح بيّن، ويزيده وضوحا أن الممدود يجوز أن تقف عليه مقصورا بحذف المدة" [12] .

ب ـ احتجاجه للقراءة لا يدعوه إلى التعصب لما وجد فيها من أخطاء الرواة :

يقول في المفاضلة بين قراءة الكسائي : (إنه عملَ غيرَ صالح)، وقراءة سائر القراء : (إنه عملٌ غيرُ صالح)، واحتجاج من قرأ بقراءة الكسائي أنها رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم هكذا ؟ . قال : قال ابن مجاهد : والاختيار الرفع على قراءة أهل المدينة والحجاز، قال ؟ : ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حفظ عنه "عملَ غيرَ صالح" لكان أهل المدينة أحفظ لها من غيرهم، لأنها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم" [13] .

وهو يشير للراوي الثقة الذي يخالف الثقات حين يروي وهيب عن أبي عمرو وعيسى بن عمر (وإليه متابي) : "الوقف بالياء . قال ابن مجاهد : وأصحاب أبي عمرو لا يعرفون ذلك، لأن الذي جرت به عادتهم حذف الياء عند رؤوس الآي" [14] .

وهو يشير إلى الوهم الذي يقع للناقل لقراءة الأئمة كأبي عبيد حيث قال : " (أفبنعمة الله يجحدون) [النحل: 71] قرأ عاصم في رواية أبي بكر بالتاء أي قل لهم يا محمد أفمن أجل ما أنعم الله عليكم أشرتم وبطرتم وجحدتم . وقرأ الباقون بالياء، الله تعالى يوبخهم على جحودهم . وروى أبو عبيد هذا الحرف عن عاصم الجحدري، لا عن عاصم بن أبي النجود، ولعله غلط" [15].

ويشير إلى وهم الرواة عن نافع ناقلا ذلك عن ابن مجاهد فيقول : قوله تعالى : (ولا تك في ضيق مما يمكرون) [النحل: 127]، قرأ ابن كثير وإسماعيل عن نافع : في ضيق بكسر الضاد، وقرأ الباقون بالفتح .. قال ابن مجاهد: رواية إسماعيل عن نافع : ولا تك في ضِيق، غلط. قال أبو عبد الله : يعني أن الرواية الصحيحة عن نافع : ضَيق" [16] .

ج - اختياره للقراءة يتفاوت لكنه يقدم من القراءات ما وافق عربية القرآن والحديث :

ففي اختياره القراءة الموافقة لعربية القرآن يقول في قوله تعالى : (يورثها من يشاء من عباده) [الأعراف: 128] ، روى حفص عن عاصم يورثها بفتح الواو وتشديد الراء من ورث يورث كأنه مرة بعد أخرى . وقرأ الباقون يورثها، بالتخفيف من أفعل يفعل، وهو الاختيار، لأن شاهده قوله تعالى: (كذلك وأورثناها) [الشعراء: 59]، (وأورثنا القوم الذين كانوا) [الأعراف: 137]، كأن حفصا ذهب إلى قوله في الحديث : "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" [17] . فهو هنا يستشهد للقراءة بلغة القرآن المعهودة ويقدمها في الاختيار على لغة الحديث الشريف .

ويقول في قوله تعالى : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) [النحل: 103]، قرأ حمزة والكسائي بفتح الحاء والياء، والباقون بالضم، وهو الاختيار، لأن الله تعالى قال: (وم يرد فيه بإلحاد) [الحج: 25]، والإلحاد مصدر ألحد يلحد، وإن كانت الأخرى جيدة .

وهو يرجح بين القراءات بالرجوع إلى ما يدل عليه التفسير، فيقول في قوله تعالى: (إنهم لا أيمن لهم) [التوبة: 12] قرأ ابن عامر وحده : إنهم لا إيمان لهم، بكسر الهمزة جعله مصدرا من آمن إيمانا . وقرأ الباقون : لا أيمن لهم بالفتح جمع يمين، وهو الاختيار، لأنه في التفسير: لا عهد لهم ولا ميثاق . وهو يختار ما عليه السواد من القراء يقول : في قوله تعالى : (من كل زوجين) [هود: 40]، روى حفص عن عاصم : من كلٍ زوجين، منونا، والاختيار الإضافة لاجتماع الناس عليها [18] .

خاتمة :

من خلال هذا العرض الموجز لبعض ملامح منهج الإمام ابن خالوية في كتابه إعراب

القراءات السبع وعللها، وجدنا أنه يعتمد على أصول في الاحتجاج للقراءة، لا تتخلف هذه الأصول . فهو يستدل على صحة القراءة بالسند المتواتر الذي رويت به . ثم بما وافقت فيه لغتها لغة القرآن الكريم في نظيراتها من الآيات الموجود فيها لفظ تلك القراءة . ثم بما ورد من لفظ يشبه لفظ تلك القراءة في الحديث الشريف، فهو لا يبيح للنحوي مخالفة ما جاء في الحديث الشريف الصحيح . ثم يلجأ إلى المسموع من كلام العرب شعرا ونثرا وأمثالا وحكما، فيتوسع في الاستشهاد بها على صحة القراءة مظهرا براعته وسعة اطلاعه على الكلام العربي، ومبينا لنا كيفية حمل الكلام العربي على المعنى اللائق به في السياق الوارد فيه ذلك الكلام، فليست اللفظة في القرآن ولا الحديث متشبهة المعنى في سائر المواضع التي تشابهت فيها حروفها . وهو يتخذ من إجماع القراء والنحويين حجة في استنباط القواعد النحوية . وهو ينص على ركن موافقة القراءة للمصحف حقيقة أو حكما، ويجل ذلك ميزانا للقبول أو الرد .

كما استنتجنا من خلال عدم التزامه بما ورد في مقدمة كتابه من كونه لا يذكر إلا القراءات السبع حين مزج معها في بعض الأحيان قراءات بعض الشواذ الخارجة عن السبعة، استنتجنا أن المؤلف يضع مقدمة كتابه في بداية تأليف الكتاب، ثم حين ينشغل بتأليف الكتاب تعرض له أفكار ومعلومات يرى من الضروري إلحاقها بالكتاب، فيغلب تلك النظرة على ما كان ألزم به نفسه في المقدمة، هو بعد ذلك لا يرجع إلى المقدمة التي كان كتبها ولا يغير من منهجه فيها، لأنه يبدو له أنه التزم بمنهجه في الكتاب، فتلك الخروجات عن المنهج في نظره خادمة للمنهج، فليس إلحاقها بمتن الكتاب مضرا بمنهج الكتاب .

هوامش :

1 ـ ينظر: محمد، أحمد سعد، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ص22 . والكبيسي عمر حمدان، مقدمة كتاب المُوضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم، نصر بن علي الشيرازي الفسوي، جده، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، ط1، 1414هـ ـ 1993م، ج 1، ص 18 .

2 ـ أحمد سعد، التوجيه البلاغي للقراءات، ص23 . حسّان تمّام، الأصول : دراسة أبيستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982م، ص94 . وما بعدها . ومطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، بيروت، مكتبة لبنان، ناشرون، ط2، 1996م، ص36 .

3 ـ المعنى : وجِّه الحَجر، فله وُجْهَةٌ وَجِهَةٌ، يعني أن للحجر وجهة ما، فإن لم يقع موقعاً ملائماً فأدره إلى جهة أخرى فإن له على حال وجهه ملائمة، إلاّ أنك تخطئها، يضرب في حسن التدبير أي لكل أمر وجه، لكن الإنسان ربما عجز ولم يهتد إليه .

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ط2، 1379هـ ـ1959م، ج2، ص362

4 ـ التوجيه البلاغي، ص23، وينظر: لسان العرب، مادة وجه، ج13، ص555، وما بعدها، ويطلق مصطلح التوجيه في علم القافية على اختلاف حركة ما قبل الروى وما بعده مقيداً ومطلقاً، ويرد في علم البلاغة مرادفاً للتورية تارة، وفناً قائماً بذاته تارة أخرى، بمعنى إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين، ينظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ص431 وما بعدها.

5 ـ السامرائي، خليل إبراهيم، مفهوم الاختيار في القراءات القرآنية، مجلة كلية المعارف الجامعة، الأنبار، العراق، العدد الرابع، السنة الثالثة، 1423هـ ـ2002م، ص11، وينظر : شاهين، عبد الصبور، أبو عمرو بن العلاء، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1408هـ ـ 1987م، ص 98 ـ 101 .

6 ـ إعراب القراءات : 3/1

7 ـ إعراب القراءات : 359/1

8 ـ إعراب القراءات : 221/2

9 ـ إعراب القراءات : 227/2

10 ـ إعراب القراءات: 221/1

11 ـ إعراب القراءات : 228/1

12 ـ إعراب القراءات : 351/1 ـ352

13 ـ إعراب القراءات : 283/1

14 ـ إعراب القراءات : 333/1

15 ـ إعراب القراءات : 358/1

16 ـ إعراب القراءات: 362/1 ـ363

17 ـ إعراب القراءات 202/1

18 ـ إعراب القراءات 280/1